باب المقالات

منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق

٤

الجمعيات

يرى كثير من العقلاء ان العلة الأولى لارتقاء الأمم هي القوة وبها سعد الافرنج في بلادهم، وبها سادوا على معظم أمم المشرق، فالقوة أساس مدنيتهم، والسلاح مصدر عزهم وعظمتهم، والا فهم لا يمتازون على غيرهم بالقوى العقلية، ولا بشيء من المواهب الغريزية، وهذه اليابان قد اقتفت آثارهم في العناية بالجندية، وتشييد الاساطيل الحربية، فصارت أكبر دولة من دولهم حتى صارت الدول العزيزة منهم تعتز بمحالفتها، وتخطب مودتها لمكان قوتها، بعد أن كانوا يرونها انقص منهم في المخلقة، وأقل في استعداد الفطرة، فعلى سائر الملك الشرقية ان تتلو في ذلك تلوها، وتقفو في أمر القوة أثرها، : ويعارض أصحاب هذا الرأي العالم الاجتماعي مبينا أن القوة في هذا الزمان تتوقف على أسباب كثيرة مرتب بعضها على بعض فلا بد من الأخذ بمبادئها لأجل الوصول الى غاياتها فما هو السبب الأول الذي يجب الابتداء به لترقية الامة ورفعة شأنها؟

يقول المشتغلون بالسياسة إن سبب ارتقاء أوربا وعزتها وسيادتها هو انتظام حكوماتها وتقيدها بالشورى التي هي ناموس العدل وينبوع السعادة فكل أمة تحب الارتقاء يجب ان توجه عنايتها قبل كل شيء إلى إصلاح حال حكومتها بجعلها مقيدة بالشورى والقوانين العادلة، ويقول لهم العالم الاجتماعي وما هو السبب المؤدي الى اصلاح الامة لحكومتها وهل يشبه لامة غير مرتقية ان تفعل ذلك؟ فكيف يجعل اصلاح الحكومة علة لكل ارتقاء وهو معلول لنوع من ارتقاء الامة لابد ان يتقدمه فما هو هذا النوع الذي هو السبب الأول للارتقاء اوعلة العلل له؟

يقول علماء التربية إن العلة الاولى لارتقاء الامم هي التربية والتعليم فكلما انتشرت المدارس ينتشر فيها وبها ومنها شعاع الارتقاء وكلما كان التعليم أعم وأكمل ، كان الارتقاء أتم وأشمل ، ألم يعد اليك أن بسمرك قال عن قومه الالمانيين أنهم انتصروا على فرنسا بالمدرسة ؟ والاقوال في اثبات هذا الرأي لاتحصى وكم كتبنا وكتب الكاتبون في بيانه ، واظهار برهانه ، ولنا في ذلك مقال مطول بأسلوب المحاورة نشرناه في العدد الثاني من سنة المنار الاولى بينا فيه ان سبب جميع أنواع الترقي الصورية والمعنوية انما هو التربية والتعليم وفي هذا المقال قال أحد أصحاب الصحف : ماذا أبقى صاحب المنار لسائر الاعداد التي تصدر في المستقبل بعد ما جمع في هذا العدد كل شيء : بل قد أعجب الاستاذ الامام بذلك المقال وأجاز كل ما ورد فيه ولكن العالم الاجتماعي يقول لنا مع ذلك ان الامة لاتتوجه الى العناية بالتربية النافعة والتعليم الرافع لها من أفق الى أفق أعلى منه الا بعد نوع من الارتقاء يتقدم ذلك فيهدي الامة اليه ، ويقدرها عليه ، فما هو هذا النوع الذي نسميه السبب الاول وعلة العلل ؟

ويقول علماء الاقتصاد وأرباب الاموال إن الثروة مبدأ كل ارتقاء ، ومصدر كل اصلاح ، فلا مدارس ولا تعليم ، ولا تربية ولا تنظيم ، الا والمال أساسه الذي عليه يبنى ، وقواعده التي عليها يرفع ، فعلى الامة الشرقية التي تطلب رفعة الشان ، والعزة والسلطان ، ان تبدأ بجمع الثروة التي تمكنها من نشر التربية والتعليم في الامة ، ومن تنظيم الحكومة وتعزيز الدولة ، ويرد عليهم العالم الاجتماعي اننا لا ننكر ان المال ، هو الوسيلة لجميع الاعمال ، ولكن جمع المال يتوقف على العدل والعلم لاسيما في البلاد التي دخلها الافرنج العالمون من طرق الكسب مالا يعلم الشرقيون . وقد أخذ بهذا السبب اليهود فكانوا فيه أبرع البشر ، وهم يحاولون منذ قرون أن يؤسسوا به ملكا ولما يساعدهم القدر ، فعلينا أن نبحث عن السبب الأول للارتقاء فنطلب الامر في إبانه ، ونأخذه بربانه ، فانه

من طلب الغاية في المبدا لا يؤوب الا بالقنوط والشقا
ومن يسر سيرا طبيعيا لها يدرك بالتوفيق منها المنتهى

يرى العالم الاجتماعي ان العلة الاولى لارتقاء الامم هي الجمعيات فلا ترتقي أمة الا بعد ان تنبه حوادث الزمان أفرادا من أولي الالباب فيها الى وجوب السعي لترقيتها ورفعة شأنها وأول ما يجب عليهم هو تأليف (الجمعيات) للتعاون على ما يجب القيام به من الاعمال فالجمعيات هي السبب الاول والعلة الاولى لكل ارتقاء بها صلحت العقائد والاخلاق في أوربا وبها صلحت الحكومات ، وبها ارتقت علومها وفنونها ، وبها عزت وعظمت قوتها ، وبها فاضت ينابيع ثروتها ، وبها انتشر دينها في المخالفين ، وبها سادت على المشرقين والمغربين ،

أليست الجمعيات السياسية السرية هي التي طهرت أوربا من استبداد الملوك والبابوات وأزالت منها حكومات الاشراف واستبدلت بها الحكومات الجمهورية والملكية المقيدة بالقوانين وسيطرة أهل الشورى من الامة ؟

أليست الجمعيات الدينية والخيرية هي التي أنشأت المدارس لتعميم التربية والتعليم ، وأنشأت الملاجئ والمستشفيات للمرضى والبائسين ، ؟

أليست الجمعيات العلمية والفنية هي التي هذبت اللغات ووسعت دائرة العلوم والفنون بما خصصت لكل فرع من فروعها رجالا يصبرون نفوسهم على التحرير والتمحيص لمسائله وتأييدها بالتجارب وترقيتها بالاكتشافات والاختراعات ؟

أليست الجمعيات المالية المعبر عنها بالشركات هي التي أنشأت المعامل لجميع الصناعات ، ومدت سكك الحديد في جميع الجهات ، وسيرت في البحار تلك الجواري المنشآت ، وابتدعت البيوت المالية (البنوك) لتيسير المعاملات ؟

بلى انه ما من عمل ارتقى الاوكانت الجمعيات هي رقته ، إن لم تكن هي التي أوجدته واخترعته ، فالجمعيات هي تظهر منتهى استعداد الانسان للارتقاء بل هي التي تحقق معنى الانسانية في هذا النوع اذ لا معنى للانسانية الا الحياة الاجتماع والتعاون فبهما قل الاجتماع في أمة ضعف معنى الانسانية فيها وبهما كثر الاجتماع واعتز كانت الانسانية أقوى وأكمل

سبق الشرق الغرب الى كل نوع من أنواع الارتقاء المدني ولكن المدنية لم تكمل في الشرق ولم تبن على قواعد يؤمن سقوطها ولذلك سقطت وما ذاك الا أن

قيامها كان بعمل الافراد لا الجمعيات فلولا هذه الجمعيات لما كانت مدنية الغرب المدنية ارقى واكمل، واجدر بان تكون أثبت وادوم.

وجدت الجمعيات السرية والجهرية في الشرق ولكن انقصمت عراها، قبل أن بلغت مداها، وجاء الاسلام بالتعاليم الاجتماعية فجعل أمر المؤمنين شورى بينهم أي تقوم به الجماعة لا يستقل به الأفراد وأمر بتأليف الجمعيات للأعمال النافعة بمثل قول الله عز وجل (٣ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وبمثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم «يد الله على الجماعة» ومع هذا لم يكن حظ المسلمين من الجمعيات أحسن من حظ سائر أهل المشرق بل كان من سوء حظهم ان استحالت الجمعيات السياسية كجمعية الشيعة التي ألفت لجعل الحكم في أهل البيت عليهم السلام وجمعية الخوارج المروقة — الى مذاهب دينية زادت المسلمين تفريقا وخذلانا. وفسدت جمعية الصوفية الاصلاحية بعد أن ربت كثيرا من المصلحين وصارت جمعية الباطنية التي أسست لافساد الدين الاسلامي جمعيات ومذاهب متعددة لم يأت منها الا الشر والوبال على الشرق فترى ان جمعيات المسلمين السياسية ما أفسدها الا اصطباغها بصبغة الدين بجعل تعاليمها مذهبا يدعى اليه باسم التقرب الى الله وستر موضوعها واخفاء مقصدها في ذلك. وقد قصروا في تأليف الجمعيات الخيرية والعلمية الفنية والشركات المالية ولولا ذلك لما ماتت مدنيتهم قبل بلوغها سن الرشد

والآن نرى الشرق قد أنشأ يتعلم من الغرب كيفية تأليف الجمعيات والشركات فنجح اهل يابان في ذلك ورشدوا ولا يزال العثمانيون والمصريون في سن الطفولية من هذه الحياة الاشتراكية الاجتماعية التي لا وسيلة لبلوغ هذا النوع رشده بدونها

أسسنا غير مرة جمعيات علمية وأدبية وخيرية وسياسية فكانت تسقط الجمعية منها بعد الخطوة والخطوتين أو الخطوات القليلة وقد نجحت في مصر الجمعية الخيرية الاسلامية نجاحا يوثق بدوامه واستمراره وهي أفضل ما عمل المسلمون بمصر في هذا الطور الجديد من الحياة وتليها جمعية العروة الوثقى وجمعية المساعي المشكورة المختصين بالتعليم. وأسسنا شركات مالية كثيرة للعمل في الزراعة

والتجارة حبط عملاني بعضها وثبت بعضها والرجاء في المستقبل عظيم

ارجع البصر الى البلاد التي لم تأخذ عن الاوربيين شيئاً من العلم ولم تشترك معهم في شيء من الاعمال كبلاد مراكش هل ترى فيها جمعية خيرية أو دينية أو علمية أو سياسية أو تشاهد فيها شركة تجارية أو زراعية أو صناعية ؟؟ تأمل واعرف الخبر و بنايصه وكيف تستزيد منه واعلم ان الجمعيات والشركات هي المعيار الذي يعرف به تقدم الامم وتأخرها وحياتها وموتها فلا يغرنك القيل والقال ، ولا نبوغ بعض الأفراد في بعض العلوم أو الأعمال ، فان هؤلاء النابغين اذا لم يجدوا في أمتهم جمعيات تعرف قيمتهم ، وتساعدهم على ابراز ثمرات نبوغهم ، يذهب استعدادهم سدى ، ويجمز مده قبل ان يبلغ المدى ، واذا وجدوا ذلك زكا استعدادهم ، وامتد إمدادهم ، وكانوا كجنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، كما أنهم يؤتون أجرهم مرتين ،

الاشربة الروحية

مقالة المقتطف التي وعدنا بنشرها

قلما تجد مائدة من موائد الافرنج خالية من الشراب من الخمر أو البيرا أو الشمبانيا ولم تولم وليمة من غير أن تشرب عليها أقداح الراح ولا تحسبن ذلك خاصاً بالافرنج بل هو شائع عند كل الأمم حديثهم وقديمهم . فآثار مصر وخرائب بابل وأشعار اليونان وتواريخ الرومان وأخبار الامم الحاضرة والغابرة وكتب الرحلات كل ذلك ناطق بأن الناس لم ينفكوا عن تعاطي كؤوس الراح من أول عهدهم بين مقل ومكثر ومقلل ومدمن ولم ينفك فضلاؤهم عن التحذير منها والنهي عنها وحجتهم أنها تسكر وتذهب العقل وتتلف المال والصحة . لكن النهي والتحذير لم يأتيا بطائل فلا يزال الناس ينفقون على الخمور اضعاف ما ينفقونه على تعليم أولادهم وينفق بعضهم عليها أكثر مما ينفق على طعامه ولا يزال